البنية الصّرفيّة بين العدول و الالتفات

الأستاذ: محمد بشير باي
كليّة العلوم الإسلاميّة
جامعة الجزائر 1

توطئة:

انتبه العلماء في القديم إلى أهمية الأبنية الصرفية في تشعّب المعاني، وكان تقليب اللفظة من وجه إلى وجه آخر صرفي يؤدي إلى تنوع المعاني الناتجة عن ذلك التقليب أو التغيير، ولذا كان التصريف علما قائما بذاته يضاهي أو يفوق علم النحو أهمية؛ لأنّ التصريف نظر في ذات الكلمة. وعليه: تمحورت **إشكالية** مذهبي في هذا الطرح المتواضع؛ حول أهميّة البنية الصّرفيّة، و قيمتها الدّلاليّة في كنف تعدّد المعاني؛ خاصّة إذا علمنا أنّ المستوى الصّرفي ركيزة حيويّة في فهم المعاني وتخريجها.

و قد أبنت في مستهل هذه المقالة عن العلاقة التي تربط الصيغة بالمعنى زيادة على دلالتها الإفرادية، ثم كشفت عن أهمية البناء الصرفي من خلال التغيير الحاصل في وزنه الذي تتغير معه الدلالة، بحيث دلالة الفعل الرباعي المزيد بحرف غير دلالة المزيد بحرفين و نحو ذلك. وكان العدول بالصيغ أهم محطّة تطبيقية، ففيه بعض السّمات الأسلوبية شأنه في ذلك شأن الالتفات.

وارتأيت أن أذكر ملخّصا مهمّا في قضية (العدول من و إلى الصّيغ)، لما في ذلك من أثر في المعنى، فمن العدول مثيرات أسلوبية، وختمت بالحديث عن أهمية الالتفات في الصيغ، سواء على مستوى الأفعال أو على مستوى الضمائر .

1- العلاقة بين الصيغة و المعنى:

يتحدّث جمع كبير من العلماء والدارسين قديما وحديثا عن أهمية العلاقة الوطيدة التي تربط المبنى بالمعنى ، أو الصيغة الصرفية بالمعنى الذي تحيل إليه، وفي هذا المقصد يشير المختصون إلى طبيعة تلك العلاقة؛ إذ أنه كلّما نُقل لفظ ما من صيغة لأخرى؛ كلما زاد في المعنى، و بالتالي كان العدول من صيغة إلى صيغة أخرى أكثر من الأولى حروفا، لابدّ أن يتضمن من المعنى أكثر مما تحويه الأولى[1].

وأجد في هذا الصّدد؛ ما يدعّم تلك العلاقة القائمة بين الصيغة ومعناها، فهذا ابن الأثير يقول: « اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بدّ أن يتضمن من المعنى أكثر مما تتضمنه أولا؛ لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، وأمثلة الإنابة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه...»[2] .

و يضرب – مستشهدا – في مقام المبالغة مثالا على ما ذهب إليه، وهذا ما يشكل في نظري مثيرا أسلوبيا، فمعنى (اقتدر) أقوى من معنى (قدر) في قوله تعالى: ﴿ **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ **سورة القمر/ 42**. فالعدول من اسم الفاعل

(قادر) إلى اسم الفاعل (مُقتدِر) شكّل قوّة في المعنى للدلالة على القدرة العظيمة التي لا مثيل لها، فكانت صيغة (مقتدر) أبلغ في الدلالة على عظمة القدرة من صيغة (قادر)،وعليه فإنّ صيغة (اِفتَعل) أبلغ و أشدّ تأثيرا من (فعل)[3] .

و في مثال آخر بخصوص هذه العلاقة يرى ابن الأثير في صيغة (رتّل) في قوله تعالى: ﴿ **أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ **سورة المزمل/ 04**. إنّ « لفظة (رتّل) على وزن (فعّل) ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنّي و التدبر، وسبب ذلك أنّ هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه إلى الرباعي، وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة، و على هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى إلّا بالنّقل من وزن إلى وزن أعلى منه»[4]

إنّ بلاغة القرآن الكريم، وتنوّع دلالاته تستند أساسا على المبالغة والتوكيد، ويتم هذا الاستناد بشيء من العدول الأسلوبي القائم على التفضيل والتخيير بين أقرب المعاني الصحيحة للمعنى المتوخى، وعلى هذا الشكل من التخريج الدلالي كان تمييز صيغة اللفظ (رتّل).

وقد نلفي علاقة أشدّ وثاقة بين مبنى الصيغة ومعناها من جهة، وبين البواعث النفسية المحركة لها من جهة أخرى، « فالكلمات يمكن أن تخضع للبواعث المحركة لها فتصبح شفافة أو معتمة، ويتم هذا في مستويات صوتية وصرفية ودلالية، ولكل منها نتائج أسلوبية بارزة»[5]،ففي قوله تعالى: ﴿ ...**قَالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**... ﴾ **سورة البقرة/ 61**. تمثيل حقيقي لشفافية الصيغة أو عتمتها بحيث أنه اختلف في توجيه دلالة الصيغة (أدنى)، فقيل أنها من القرب المكاني أومن القرب الزماني، أومن الدناءة والخسّة، أو أنها تعبّر عن الأرذل تارة، وعن الأصغر تارة أخرى[6].

ويذكر صلاح فضل عن قيمة المثير الأسلوبي في ناحية الصرف ودوره الرئيسي في تشكيل النسيج الأسلوبي ، واستحضار الدلالة ما يؤكّد نسبيا توجّه بحثي، حين يقول: « أمّا الباعث الصرفي فيتمثل في وجود صيغ ومشتقات صرفية شفافة ذات أثر أسلوبي ... تكتسب دلالة أسلوبية جديدة في سياق تعبيري يبرز شفافيتها ويخفف من عتمتها».[7]

2- دلالة الصيغة الإفرادية:

تُعدّ دلالات الصيغ الإفرادية- بعيدا عن نظمها - رافدا يغرف منه من أراد، فهي كالمادة التي يمكن التصرف فيها، وتشكيلها كيفما نشاء وفق قوالب معدة لذلك فالدلالة الإفرادية « بمثابة مادة أولية لا غنى للمتكلم عنها في التعبير عن معانيه ومقاصده، وأنه إذا كانت الكلمة المفردة تمثل الوحدة التحليلية الأولى للكلام، فإن المدلول الإفرادي لتلك الكلمة هو بمثابة الوحدة التحليلية الأولى للمعنى في هذا الكلام »[8].

وإذا ما تأملنا الصّيغة (أتى) في قوله تعالى: ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ **سورة النحل/01**. فنجد تباينا بين دلالتها الإفرادية في المعجم، وبين دلالتها المستشفّة من استعمالها في صيغة الماضي المراد به المستقبل أو غير ذلك، هذا ما يلفت الانتباه ويشكّل لافتة أسلوبية مثيرة تستوقف القارئ، قال الزمخشري في ذلك: «أتى أمر الله، الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظرا لقرب وقوعه»[9].

و يستفيض عبد الحميد هنداوي في تعليقه على الزمخشري للآية السابقة بملاحظتين هامتين، أما الأولى فهي «... ولكن المراد هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى الماضي، وموظّفة له في الوقت نفسه، فكأنّ مقصود الآية أن تقول سيأتي أمر الله لا محالة مجيئا مقطوعا به بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل»[10]، أما الأخرى « أتى أمر الله تعالى فعلا باعتبار تقديره أو وقوع مباديه وأماراته ، وحينئذ لا مجاز ولا تجاوز؛ لأنّ الصّيغة حينئذ موظّفة في معناها الذي وضعت له »[11].

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾ **سورة طه/ 69**، فالتّعبير بالماضي على سبيل الحقيقة، ومنه لا فلاح لساحر مهما تفنّن في سحره، ويستشهد صاحب هذا الرأي[12] بقول القرطبي: « أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض، وقيل حيث احتال»، وعليه (أتى) صيغة وضعت لتأكيد فشل السحرة وبطلان عملهم الذي صار حجّة عليهم.

وهكذا في قوله تعالى:﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ **سورة الشعراء/ 89**، فإنّ للصّيغة الصّرفية الإفرادية (أتى) دلالة أخرى ذات معنيين مختلفين «إما في تحقيق القدوم على الله والمثول بين يديه...، وإما الإتيان بقلب سليم على وجه التحقيق والكمال»[13].

وبهذا تتفرّد الصيغة بدلالة إفرادية، يمكن توظيفها بحسب السياقات، و لكن تبقى دلالتها الجديدة ذات صلة بأصلها، «الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضّم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد»[14]، وليس المثير ههنا أن يتمّ خرق في القاعدة أو القانون، و لكن المثير أن يتعدد الاستعمال فتشكّل حينئذ ميزة أسلوبية.

3- أهميّة البناء الصّرفي في تحديد الدّلالة:

الدّلالة الصّرفية الناتجة عن دلالة مبنى الصيغة الصرفية ركن أساسي وهام في تخريج الدلالات وتحديدها، فهي مطية مشروعة لغويا في فهم النص اللغوي «ونحن نعدّها عنصرا من عناصر تحديد الدلالة، ومصدرا من مصادر بيانها، وطريقا للوصول إليها، وليس دلالة موصوفة بالصرفية»[15]، فليست الدلالة الصرفية أمرا اعتباطيا أو عفويا، بل هي حقيقة يجب الانتباه إلى قيمتها في معزل عن السياق ومقتضى الحال، فالعلماء، «أكدّوا أن طبيعة الصيغة الصرفية للكلمة المعينة وجرسها يُشعر بدلالتها»[16].

و من ذلك – قضيّة البناء- دلالة الفعل الرباعي المزيد بحرف واحد، والذي به نرفع اللّبس عن المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿...**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾ **سورة الكهف/ 28**، و بصرف النّظر عن التأويلات المختلفة لهذه الآية ،«فالدلالة في الفعل الذي جاء على صيغة (أفعلت) يدلّ على أنه وجد الشيء على صيغة معينة، مثل (أكرمت زيدا)، والمعنى المراد لديك أنك وجدته كريما ، وقد يكون معناه أنك جعلته كريما، فهذا الاشتراك في دلالة الصيغة الصرفية أدّى إلى الاختلاف في معنى النص القرآني»[17].

والملاحظ أن تعدّد دلالات الصيغة (أفعل)، فتح باب التأويل فمن دلالاتها الدخول في الزمان والمكان، ومشابهة المفعول للذّات، و جعل الذات في المفعول[18] هذا من جهة، و من جهة أخرى فإنه يكفي أن يتعدى الفعل بمجرد زيادة حرف و(غفل) غير (أغفل)، ولأسلوب القرآن الكريم مزية التّفرد كونه يفتح باب التفسير بحسب أهواء المفسرين، فالزيادة في وزن الكلمة وبنائها زيادة في معناها.

والجدير بالذكر في هذه القضية، ما يسميه العلماء دلالة العدول أو النيابة كاستعمال مبنى صيغة الجمع للدلالة على المفرد، و هو فيما أراه يطابق مفهوم أسلوب الالتفات، والأمر الملفت للانتباه في قوله تعالى:﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ **سورة التوبة/17**؛ هو استعمال صيغة الجمع (مساجد) للدلالة على مسجد الله الحرام، فمخاطبة الله عز وجل للمشركين بصيغة الجمع، إنما لأن المراد هو ذلك، فالزمخشري يشير إلى ذلك بقوله: « وإنما قيل: مساجد لأنّه قبلة المساجد كلّها وإمامها»[19].

و نجد في قوله تعالى:﴿...**فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ**...﴾ **سورة البقرة/ 11**. تعبيرا أسلوبيا مثيرا فجعل مبنى الصيغة (إخوة) للدلالة على المثنى، يدفع القارئ لتحرّي قيمة ذلك في الميراث، فلِمَ المخاطبة بصيغة الجمع في الآية الكريمة ؟ و إذا علمنا أنّ أقلّ الجمع اثنان، فإنّ الزمخشري يقول: «فإن قلت : فكيف صحّ أن يتناول الأخوة (الأخوين)، والجمع خلاف التثنية؟ قلت: الأخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية، والتثنية كالتثليث و التربيع في إفادة الكمية، وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق، فدلّ بالأخوة عليه»[20].

وأهمية البناء الصرفي في تحديد الدلالة لا تتجسّد فيما تحيل إليه الصيغة الصرفية، بل يبقى للسياق تأثير بالغ الأهمية في تحديد المعنى المراد بالصيغة على مستوى الإفراد أو على مستوى التركيب و لهذه المسألة حديث مستفيض في النّحو والسّياق.

4- العدول بالصيغ:

لقد كثر الحديث عن العدول (الانحراف) في الدراسات الأكاديمية وغيرها، وتم التوصل إلى استنتاج بعض التسميات الأسلوبية التي تجعل من بعض العدول مثيرا أسلوبيا، و هذا ما أستطيع أن أكشفه من خلال هذا العنصر.

4-1 العدول في المصادر:

عدل الحكيم عز وجل عن المصدر (تَبتُّلا) إلى المصدر (تبتيلا)، أي من وزن (التفعّل) إلى (التفعيل) في قوله:﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴾ **سورة المزمل/ 08**، و يُرجع الزمخشري هذا العدول إلى الفواصل «فإن قلت: كيف قيل (تبتيلا) مكان (تبتّلا) ، قلت لأن معنى تَبتَّل: بَتِّل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل »[21]،فالملاحظ من قول الزمخشري أنّ الفاصلة في القرآن الكريم تشكل مثيرا أسلوبيا، والحديث عن الفاصلة يحتاج إلى موضوع بحث علمي.

أمّا عبد الحميد هنداوي في دراسته الإعجاز الصرفي، عمّق البحث عن المعنى المقصود من العدول السابق الذكر، فهو يرى أن معنى المصدر (تبتيلا) يتضمن معنى المصدر (تبتّلا)[22] ويستدل في تخريجه هذا بتضمين فعل ما معنى فعل آخر حين استشهد بقوله تعالى:﴿ **وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ **سورة الأنبياء / 76**؛ فيقول: «أي نجيناه من القوم، حيث أراد أن يبين سبحانه أن هذا النصر لم يكن بالغلبة، وإنما كان بالتنجية من أذى قومه، فعداه بـ(من) وكان حقه أن يعدى بـ(على) وذلك ليضمنه معنى نجيناه أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم»[23].

واستطرد في شرحه «... وأتى في المصدر بـ(تبتيلا) ليدلّ على أن المراد هو الإكثار من هذا التبتّل و الانقطاع، وذلك لحاجة الداعي إليه في أول الطريق حتى ينال نصيبه من زكاة النفس، و مجاهدتها ... وبهذا يتضمن الأمر معنى المحاولة والمجاهدة مع الإكثار من (التبتّل) المطلوب للداعي ليكون زادا له في دعوته للناس»[24].

ولقد انطوى العدول في الصيغة السابقة على شرح آخر ، حُدّد في أن «السبب في إيثار (تبتَّل) على (بتِّل) أن (تبتّل) مطاوع (بتّل) حيث يقال (بتَّله فتبتّل) معنى (بتِّل)»[25]، وبهذا نجد الآية الكريمة جمعت بين عدوليين في آن واحد أي عدول في عدول، فـ(تبتيل) مصدر الفعل (بتّل)،(وتبتّل) مصدره (تبتّلا)،وبالتالي كان (التبتّل) بمعناه المشار إليه سابقا مرحلة مهمّة لأجل التبتيل الذي يناسب معناه ترويض النفس و المداومة على الانقطاع إلى عبادة الله.

4-2 العدول إلى اسم الفاعل :

ورد في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ **سورة البقرة/144**، فالتعبير في هذه الآية الكريمة كان بصيغتي (الفعل) و(الاسم)،(تبعوا) و(تابع)، عن أهل الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم على التوالي.

ولعل سبب العدول المثير من صيغة الفعل إلى صيغة اسم الفاعل، يعود إلى أن «التعبير باسم الفاعل منفيا لينفي عن النبي صلى الله عليه وسلم أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتي للنسبة، ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيا لأدنى احتمال في انتساب النبي صلى الله عليه وسلم لمتابعة أهل الكتاب»[26]، وقياس هذا التحليل على قوله تعالى:﴿ **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ**﴾ **سورة الكافرون/ 04**.

ويجزم الزمخشري في تفسيره للآية السابقة بأن التعبير بصيغة اسم الفاعل عن النبي صلى الله عليه وسلم قطع للشك باليقين، وأنّ هذا الأمر حسم، وفيصل لأطماع أهل الكتاب وانعدام رغبتهم في الإيمان[27]، وما زاد التعبير بصيغة اسم الفاعل (تابع) قيمة، هو ربطها بـ(الباء) للنفي المؤكد وبالتالي تخليص النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الأمر الذي يترجّاه أهل الكتاب، و هو أن يتّبع الرسول الأكرم أهواء أهل الكتاب وأطماعهم.

4-3 العدول إلى اسم المفعول:

يقول الله تعالى في محكم تنزيله:﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**﴾ **سورة ص/18،19**.يرى صاحب الكشاف في خطاب الله تعالى عن نبيه داوود عليه السلام عدولا عن (يسبّحن) إلى (محشورة) أي من صيغة (الفعل) في الآية 18،إلى صيغة (اسم المفعول) في الآية التي تليها، و الشاهد هاهنا في قوله تعالى(محشورة) فيقول الزمخشري «وقوله (محشورة) في مقابلة (يسبحن) إلّا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء، جيء به اسما لا فعلا»[28]،لأن التعبير بـ(محشورة) أدلّ على القدرة.

وبحسب هذا التخريج الدلالي فإنّ «التسبيح يقع من المخلوقات شيئا فشيئا أما الحشر فيقع من الله تعالى جملة واحدة بأمر واحد ، إذ يقول للشيء كن فيكون، كما أن ذلك يدل على اجتماع الطير لداوود عليه السلام في وقت واحد ساعة تسبيحه، لا أنها تحضر في أوان تسبيحه شيئا فشيئا بل تحضر معه جملة واحدة من بداية التسبيح إلى منتهاه »[29]،وليس فعل العبد كفعل الخالق تعالى.

وفي سياق الحديث هذا، أجد أنّ صيغة الاسم تفيد الخصوصية والتمييز ، ذلك أن سرّ التعبير الأسلوبي في الآية الكريمة يظهر المنزلة الرفيعة التي أرادها الله تبارك وتعالى لنبيه داوود عليه السلام، ومن ثم «تبرز خصوصية النعمة التي أنعم الله بها على نبيه داوود إذ من شأن الطير الحركة و التنقل، ومن ثم فإن التعبير بصيغة الاسم تفيد أن الطير حين تسبح مع داود تفارق طباعها وتثبت في مكانها خاشعة»[30].

إذا فلو استعملت صيغة اسم المفعول (محشورة) بصيغة الفعل (يحشرن) وصار التعبير عندئذ (وسخرنا الطير يحشرن) ، لدلّ ذلك على حدوث فعل الحشر بالتدريج، أما التعبير بصيغة اسم المفعول فالمراد به أن الحاشر هو الله الواحد والقادر على ذلك.[31]

4-4 العدول إلى الصفة المشبهة:

من لطائف القرآن الكريم التي وسمت أسلوبه العدول إلى الصفة المشبهة، وأفضل دليل على ذلك ما استشهد به بعض العلماء وأهل الاختصاص فيما يخص قوله تعالى:﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ،أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ، يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ، أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً، قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ، فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ...**﴾ **النازعات/6-13**.

والشاهد في عدول الآية عن اسم الفاعل الذي جاءت عليه الفواصل إلى صيغة الصفة المشبهة في قوله تعالى ﴿**أَ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً** ﴾، ومردّ ذلك إلى اختلاف بعض القرّاء، لكن المهمّ لماذا هذا العدول؟

يرجع هادي نهر، الاختلاف في الصيغتين إلى « تقادم العهد في العظام النخرة كونها قد آلت إلى التفتت والبلى، في حين تكون العظام الناخرة هيا كل جوفاء تمر الريح خلالها، والعظام المفتتة النخرة أظهر وادعى للتعجب من احياءها مرة أخرى من العظام

المجوفة»[32]، وحسبه-إذا- أن قدرة الله جلّ جلاله في بعث العباد تظهر في إرجاعهم إلى حالتهم التي كانوا عليها في الدنيا حتى وإن كانت عظامهم فتات وجزيئات.

ويرجح آخرون العدول نفسه في الآية السابقة إلى قضية تفاضل الصيغتين بلاغيا،«... فقد صرحوا بأن (فعِل) أبلغ من (فاعل) وإن كانت حروفه أكثر...»[33]،وهذه الأفضلية في التعبير بصيغة الصفة المشبهة أقرّها الزمخشري بذكره قيمة الصيغة (فعِل) بلاغيا في المعنى من صيغة (فاعل)،وفي المعنى نفسه «كان التعبير بنخرة وهي صفة مشبهة تدل على ثبات تلك الصفة في العظام لطول العهد مع ما فيها من معنى المبالغة، خاصة وأن (فعل) من صيغ المبالغة كذلك»[34]، وليس- بهذا المعنى - في مخالفة الإيقاع في الآية الكريمة من سبب إلّا تقديم أهمية المعنى على أهمية اللفظ.

4-5 العدول إلى المفرد:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:﴿ **اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ **سورة البقرة/ 257**، فاللّافت في هذه الآية الكريمة هو ذكر النور بصيغة المفرد، وذكر الظلام أو الظلمة بصيغة الجمع ، فما السّر في ذلك؟

تحدّث ابن القيم بإسهاب في هذا الأمر الذي تكرّر في مواضع عدة من القرآن فيقول«... والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مردّه إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها توصل إليها...»[35].

وعليه، يرى أنّ السبيل إلى الله واحد والسبل إلى دونه كثيرة متفرقة، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ **سورة الأنعام/153**. ويختم ابن القيم حديثه بهذا التخريج الشيق «لما كانت الظلمة، بمنزلة طريق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، أفرد النور وجمعت الظلمات»[36].

ولذا تجد المختصين يستطردون كلاما في إفراد النور وجمع الظلمات وجها لطيفا، «وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل أو أن الأول (أي النور) إيماء على القلة و الثاني (الظلمات) إلى الكثرة »[37]،وقد ورد مثل هذه اللّافتة في القرآن في مواضع عدّة، ويتجلى بخاصة في قوله تعالى:﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ **سورة فاطر/ 19-22**.

4-6 العدول من(فعَّل) إلى (أفعِل) :

عدل الله تعالى في ذكره الحكيم عن صيغة (فعّل) إلى صيغة (أفعل) في قوله تعالى:﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، وَأَكِيدُ كَيْداً، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**﴾ **سورة الطارق/ 17**، و السرّ في هذا العدول يتجاوز المخالفة بين اللفظين لمجرد المخالفة وهذا ردّا على من

يزعمون أنّ الأمر لا يعدو أن يكون سوى مخالفة بين الصيغتين، ويستفيض شرحا بقوله: « ومن ثمّ جاء الأمر بالتمهيل مطلقا جاء معه الفعل (مهّل) ... ولما كان هذا الفعل يشعر بطول مدة التمهيل مما قد يلقي الوهن واليأس في قلوب الدعاة، أعقبها القرآن بصيغة (أفعل) مقيّدة بما يفيد التقليل »[38].

والملاحظ من كلامه أن وعيد الله تعالى آت لا محالة، فهو قريب بالنظر إلى التمهيل برغم أن المدة الزمنية التي تفصل الكافرين عن يوم القيامة قد تطول إلى آلاف السنين ، واستدلّ على معنى كلامه هذا بقوله تعالى:﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ، مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ، تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ، وَنَرَاهُ قَرِيباً** ﴾ **سورة المعارج/الآيات 1-7.**

وأورد الرازي :«منهم من قال (أمهلهم رويدا) إلى يوم القيامة، وإنّما صُغّر ذلك من حيث علم أن كل ما هو آت قريب، ومنهم من قال (أمهلهم رويدا) إلى يوم بدر، والأولى أولى لأنّ الذي جرى يوم بدر، لا يعمّ الكل وإذا حمل على أمر الآخرة عم الكل ولا يمتنع من ذلك أن يدخل في جملته أمر الدنيا، مما نعلم يوم بدر وغيره، وكل ذلك زجر وتحذير للقوم».[39]

5- الالتفات في الصيغ:

للالتفات قيمة أسلوبية بالغة الأثر عدا قيمته البلاغية، و قد عدّ عند بعض العلماء من فنون البيان « هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، و من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم»[40]، وقيل فيه أيضا « و هذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله»[41].

وظاهرة الالتفات ارتبطت بالعدول اللّغوي، سواء في الضمائر أو الأسماء أو الأفعال، وسواء في العدول من زمن إلى زمن آخر، و على سبيل التمثيل للالتفات - باعتباره تقلّب من أسلوب إلى أسلوب- أورد بعض أشكاله لإيضاح الغرض منه.

5-1 الالتفات في الأفعال:

ومن ذلك الرجوع عن صيغة المضارع إلى الأمر، قال تعالى:﴿ **قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ،إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ **سورة هود/ 53،54** و اللّافت هنا الالتفات في قوله تعالى﴿ **وَاشْهَدُواْ**﴾ بصيغة الأمر وكان سياق ما قبلها يقتضي صيغة المضارع لتوافق قوله تعالى ﴿ **أُشْهِدُ** ﴾، فما سرّ هذا؟

يرجع تقدير هذا الالتفات «ليكون موازنا له وبمعناه لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك الصحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، و دلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأولى لاختلاف ما بينهما، و جيء به على لفظ الأمر تهكما واستهانة»[42].

وعليه لما كان هو عليه السلام يقيم حجته على قومه ، ذكر براءته من الشرك على مر الزمن معبرا عنه بصيغة (المضارع)، فكان إشهاد الله تعالى على ذلك لأنه علّام الغيوب، ويعلم الجهر وما يخفى ، ولما تعلق الأمر بقومه، خاطبهم بصيغة (الأمر)، حتى يتبرأ منهم ساخرا ومستهزئا لأنّهم يعلمون إيمانه.

وفي الإخبار بالمضارع عن الماضي؛ يبرّر فاضل السامرائي ذلك بقوله: « و المقصود بحكاية الحال الماضية أن تعبر عن الحدث الماضي بما يدل على الحاضر استحضارا لصورته في الذهن كأنه مشهد مرئي في وقت الإخبار»[43].

وتمثيلا له جاء في قوله تعالى:﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ** ﴾ **سورة فاطر/ 09**؛ وموضع الالتفات في الآية الكريمة هو التعبير عن الماضي (أرسل) بالمضارع (تسير) والملفت للانتباه في هذا العدول هو أن زمن إرسال الرياح أسبق من زمن إثارة السحاب، والغرض منه «تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته».[44]

5-2 الالتفات في الضمائر :

ومن ذلك العدول عن صيغة المتكلم إلى صيغة المخاطب، فقد جاء في قوله تعالى:﴿ **وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ **سورة يس/ 22**،والظاهر في كلامه تعالى التعبير بصيغة المخاطب ﴿ **تُرْجَعُونَ** ﴾ بعدما كان سياق الآية يتحرك في صيغة المتكلم.

والفائدة في ذلك هي «أنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطّلف بهم ويداريهم، حيث لا يريد إلا ما يريد لروحه»[45]، بحيث أن مخاطبة المشركين بلفظ الجمع، بعد تخصيص العبادة بصيغة المفرد إنّما لتأنيبهم وترهيبهم على اعتبار أنّهم سيرجعون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة عز وجل فآثر نصحهم على أن يتركهم في غيّهم.

أمّا في الالتفات من صيغة (المخاطب) إلى صيغة (الغائب)، فنورد قوله تعالى:﴿ **وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ،وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ **سورة النحل/ 16،15**. والشاهد في الآية هو العدول عن المخاطب (تميد بكم) طلبا لصيغة الغائب (يهتدون).

ويذكر الزمخشري سبب ذلك بقوله: «فإن قلت : وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه (النجم) مقحم فيه (هم) ،كأنه قيل : وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد بـ(هم) ؟ قلت: كأنه أراد قريشا ،كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم علم بذلك لم يكن مثله لغيرهم...»[46].

ولعل المقصود بالقول سابق الذكر هو تخصيص قبيلة (قريش) كونهم يتميزون بالفراسة، فقد جعلوا (النجوم) علامات على مسايرهم، و عليه فإن في هذا الالتفات تمييز قريش عن غيرهم من القبائل و العباد.

5-3 الالتفات في الأعداد:

ومن ذلك الالتفات من (المفرد) إلى (المثنى)،وفي قوله تعالى:﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ،قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ **سورة يونس/ 88،89**، لطيفة أسلوبية في ردّ الله تعالى الخطاب لموسى بصيغة (المثنى) وهو وحده، و مردّ ذلك «كان موسى يدعو وهارون يؤمّن، و يجوز أن يكونا جميعا يدعوان»[47]، أي أنّ موسى عليه السلام لم يكن وحده في دعاء الله تعالى، بل كان إلى جانبه أخوه هارون ،كما علمنا في القصص القرآني، وإنما خصص موسى في الآية الكريمة لأنه هو المعني بالرسالة، وهو المبعوث إلى فرعون، ومعه بني إسرائيل.

خاتمة

وأخيرا تبقى هذه الدراسة مجرّد محاولة لإدراك ما خفي من ظواهر القرآن؛ إذ مبلغي كلّه أن أفتح قوسا في قراءة خصائص الأسلوب القرآني من حيث العدول والالتفات؛ والبحث في مستوى حيويٍّ من مستويات الدّلالة - المستوى الصّرفي -، وما يفرزه من أوزان نسقطها على دلالات النّص القرآني، و ما كان ذلك ليكون لولا استقراء ما وجدته في بعض المصادر القيّمة، وفي بعض المراجع الجادّة.

ولعلّ تقتضي الضرورة البحث في موروثنا اللغوي، وعقد صلته بكشوفات الحداثة لتبيان الثراء الفكري والمعرفي لعلمائنا الأجلّاء في ميدان الدراسات اللغوية عموما، وفي مقدمتها النحو والصّرف؛ لأنّ معالجة قيم النّص الدلالية تقوم على مراعاة جوانبه النحوية والصرفية والسياقية فقط، وقد ركّزت هاهنا على البنية الصّرفيّة ودلالاتها.

الهوامش:

1. الإعجاز الصرفي في القرآن، عبد الحميد أحمد هنداوي، ص: 35.
2. المثل السائر، ابن الأثير، ج2/ 241.
3. ينظر: المثل السائر، ج2/ 242.
4. المثل السائر، ج2/ 245، 246.
5. علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، صلاح فضل، مجلة فصول، أكتوبر 1984، ص:57.
6. ينظر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نهر، ص:57.
7. علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، صلاح فضل، ص:57 .
8. المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة- مصر- ط1، 1418هـ/1998م، ص:09.
9. الكشاف، الزمخشري، تح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان- ط1،دت،ج2 /321.
10. الإعجاز الصرفي في القرآن، عبد الحميد أحمد هنداوي، ص: 49.
11. المرجع نفسه، ص:49.
12. ينظر: الإعجاز الصرفي: عبد الحميد هنداوي، ص:50.
13. المرجع نفسه، ص:50.
14. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 415.
15. علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نهر، ص:61.
16. المرجع نفسه،ص:61.
17. الدلالة اللغوية و أثرها في تأويل النص القرآني لدى الأشاعرة، أحمد عرابي، مخطوط دكتوراه، جامعة وهران، 2004 ص:08.
18. ينظر: علم الدلالة التطبيقي، هادي نهر، ص:65.
19. الكشاف،الزمخشري،ج2/253.
20. الكشاف،الزمخشري،ج1/ 483.
21. الكشاف،الزمخشري،ج4/ 15.
22. ينظر : الإعجاز الصرفي، عبد الحميد هنداوي، ص: 170
23. الإعجاز الصرفي، عبد الحميد هنداوي،ص:170،171.
24. المرجع نفسه، ص: 172.
25. المرجع نفسه، ص: 172.
26. الإعجاز الصرفي، عبد الحميد هنداوي،ص:175.
27. ينظر: الكشاف، الزمخشري، ج2/ 268.
28. المصدر نفسه، ج3/ 32.
29. الإعجاز الصرفي، هنداوي، ص:181.
30. المرجع نفسه، ص: 181.
31. ينظر : الكشاف،الزمخشري،ج3/ 32 .
32. علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نهر، ص:60.
33. الإعجاز الصرفي في القرآن، هنداوي، ص:180.

34. المرجع نفسه، ص: 180.
35. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، تح: هشام عطا وزميلاه، مكتبة نزار مصطفى، مكة المكرمة، دط،1990/1416، ج1/ ص:119.
36. بدائع الفوائد، ابن القيم،ج1/ 119.
37. الإعجاز الصرفي، هنداوي، ص: 183، 184.
38. ينظر: المرجع نفسه ، ص: 187.
39. نقلا عن: الإعجاز الصرفي في القرآن، ص: 188.
40. الكشاف،الزمخشري،ج1/ 64،65.
41. المثل السائر، ابن الأثير، ج2/ 170.
42. البحث الأسلوبي معاصرة و تراث، رجاء عيد، ص: 250.
43. معاني النحو، فاضل السامرائي، بيت الحكمة، مطبعة التعليم العالي، الموصل-العراق- (د ط)، السنة:1985،ج3/ 319.
44. البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، رجاء عيد، ص: 251.
45. الكشاف،الزمخشري،ج3/ 318.
46. الكشاف، الزمخشري، ج2/ 404.
47. الكشاف، الزمخشري ،ج2/ 250.